قصة قصيرة

وجه آخر للسيدة كاترين دينوف

عبد الستار ناصر

مهداة الى : بثينة الناصري

في الجنون أولاً،
وفي الكآبة أيضاً، كان معي . .

الوجه أعرفه عن ظهر قلب: عينان خاليتان من الضوء، لكن وهجاً غريباً تحسّه في تلك المساحة المحفورة داخل الرأس يوحي بأنه يرى كل شيء، إحساساً سرّياً دافئاً يوحي بأنه يعرف كل شيء، حتى الذي يختفي وراء حاجز الحواس، وأعرف أنفه المتآكل عند الغضروف، كأنه يوحي بانقراض قريب لهذا الرأس.

وأعرف . . ماذا أيضاً؟

صوته الهامس المخنوق وأنا أسمعه يردد:

- هل ما زلت معي؟

لماذا كنت أعاند نفسي على البقاء معه؟ الطائرات تحلق فوق رأسينا، أقول له إنها آلات من الحديد تسافر إلى بلد آخر . . هل كان يفهم؟ أبداً، لكنه يهز رأسه ويضحك، انبعاجات لحمية تتشابه عند حالات الحزن أيضاً، ووحدي من كان يدرك الفارق بينهما، عاب البعض أني ضيعت أجمل أوقاتي معه، لكن جرحاً خفياً في الروح وجرحاً آخر في جسدي، كانا كافيين تماماً لردّ هذا «العيب».

* * *

عشية الأول من شباط، ثمة عند الطرف الشرقي من محلة «السيد ناهي» كانت امرأة رثة الثياب تطرق باباً خشبياً مزخرفاً لبيت من البيوت، وعندما دخلت رآها رجل واحد وهي تسرع في إخفاء نفسها داخل هذا البيت.

ما كان من شيء غريب،

لكن هذا الرجل ما كاد ينتهي من طرف المحلة الغربي، حتى رددت حيطان المحلة كلها صرخات حادة. . وفكر - لا يدري لماذا - أنها للمرأة نفسها التي رآها عند أول الزقاق، ولا يدري أيضاً لماذا رجع إلى هناك، ليرى (جثة) المرأة وهي مغطاة بالدم.

وعندما أراد أن يهرب، خوفاً من سوء الظن، كانت بيوت المحلة جميعها قد أفاقت وفتحت أبوابها لتمسك به، ولم يكن من ردّ على صمته ودهشته سوى الضرب على كل جزء من جسمه، الذي لم يحتمل، فهوى، تحت كتلة بشرية امحت ملامحها مرة واحدة، ليقف السيد «ناهي» سيد المحلة عند أعلى الرؤوس ويصرخ:

- يكفي هذا، فقد وصلت الشرطة.

* * *

بعد وقت طويل، تمكنت أن أصدق أن هذا الرجل كان (أنا) لما وجدت نفسي داخل زنزانة معزولة، رجعت بذاكرتي إلى خارطة المحلة، راسماً على الجدران كل البيوت التي مررت بها، وحدست أن البيت الذي دخلته المرأة لم يكن سوى بيت المختار، السيد ناهي نفسه (!).

وصرخت (كأني وجدت الحل) رحت أنادي بأعلى صوتي. . ولما جاء الحارس نحوى قلت له:

- لا بد أن أرى الضابط حالاً.

نظر إليّ كأنه يقول (إخرس أيها القاتل) ثم أهملني وراح صوب غرفته، بينما رجعت أصرخ:

- لقد عرفت القاتل.

ولما رجع الحارس وقد بدا عليه الغضب، وجدته يمدّ إحدى يديه كمن يصوب خنجراً إلى رأسي، وقال بصوت حيواني:

- إخرس أيها القاتل.

تماماً، كما قالها بعينيه منذ دقيقة، لكن حنجرتي لم تقف عن العواء.. ثم إذا بي أبكي مثل امرأة لم تصل إلى قطارها الذي رحل، وعافها مفلسة في أرض غريبة.

كانت الزنزانة أرضاً غريبة لا أعرفها، وهذا الحارس قطاري الذي يجرني إلى النجاة، ومن أين لي أن أفهم يومها أن هذا الحارس لم يكن غير عبد صغير ودمية سهلة يحركها «السيد ناهي» في أيّ اتجاه يريد؟

* * *

هل كان الحارس وحده، دمية ناهي وخادمه؟

حتى ذاك الوقت، لم أكن أعرف شيئاً، فقد كان الصمت الذي أغرق - ويغرق المكان فيه - كافياً لقتلي، ها هي حنجرتي ما زالت تصرخ، تئن، تبكي، تتوسل، وليس من يرد عليها سوى صراخ وأنين الزنزانة، ليس من أحد يهمه أمري أو يعي مدى سوء حالي سوى بكاء الصدى ترجعه الفراغات كأنها تضحك من هذا المعزول الذي أصبحته (أنا) دون ذنب، هذا الذي مرّ عليه الوقت دون سؤال؟

قلت لنفسي:

- ماذا أفعل بعد هذا العواء الذي رميته في ثغور الفراغات، وفي فراغات الزنزانة، وفي زنزانة بلدي؟ لا شيء.. معان مخيفة وحادة.

قلت (يا رب) ولم أجد جواباً، قلت أيها الحارس خذني إلى الضباط، ولم أجد جواباً، قلت أيها الرب، ثانية، وكان البكاء يرجع مثل التحدي.. لم أجد تحت جسدي سوى بطانية وسخة رميت عليها نفسي وقلت: أية صدفة رمت بي إلى محلّة السيد ناهي في تلك الثواني؟

لكنها محلّة أجدادي وأبي، ولدت فيها، وعرفت أهلها، هل كان عليّ أن أتنبأ، بأني لسوء حظي سأنزل في هذه البقعة، مرمياً كبقايا طعام؟

أسكت، أحاول النوم علّ شيئاً يجري في صباح الغد، لكن هذا أقرب ما يكون إلى المعجزة، أنام ؟ يالها من أمنية، كأني لدغت ثانية.. رجعت أصرخ، بل أعوي مثل كلب، ليت عوائي لا يرجع عليّ كما جرى، فقد شعرت أن أذني وحنجرتي وأنفي تكاد أن تنفجر من جراء انحباس هذا الصوت الموجع الرهيب في تلك الفراغات التي لا يحشوها سوى جسدي.

هل كدت أنفجر؟ أم انفجرت فعلاً؟

رأيت بعد وقت لا أدريه، جسدي ينهض من سبات عجيب، إذن فقد انفجرت وها أنا أجمع أعضائي كي أرى ما وصلت إليه.

ها هي الزنزانة كما كانت، وها هو الحارس يقف عند أعلى رأسي يسكب شيئاً من الماء، يتحرك فوق مسامات وجهي ويمر تحت ثيابي، سمعته يقول:

- ماذا فعلت أيها الجرذي؟ أحاولت قتل نفسك؟ أصبحت عقوبتك الآن أكبر.

ثم رأيته يضحك.

لقد كان يضحك، من السهولة أن أجد الفرق بين الوجه الذي يضحك والوجه الذي لا يضحك.. لماذا كان يضحك؟

رحت خلف رأسه أردد: لماذا تضحك؟

كان قد وصل إلى غرفته عندما كنت أهمس:

- لماذا تضحك يا سيدي الحارس؟ تضحك يا حارسي لماذا؟ سيدي حارسي لماذا حارسي تضحك؟

كان من الشك أن أعي تلك الساعة أن عقلي قد جنّ تماماً، وأن الرجل الذي أعرف أنه أنا، قد صار اثنين، يمكنه أن يعي في وقت ما كل شيء. وفي الوقت نفسه ربما، أو في وقت آخر، يضحك مع دود الزنزانة، يعوي خلف أشباحه وكوابيسه..

ونمت على أرض الزنزانة، تحسدني كل العيون التي رأت هذا الرجل، وقد تحول فجأة إلى طفل يتغوط ويبول، ويضحك؟

* * *

لقد هدأت،

هدوء طفل ليس له سوى دمية واحدة يمرح معها، طفل ملّ كل الطرق التي جربها مع دميته، وهل كانت عندي سوى تلك اللعبة، أخلقها في مخي، أمسكها، وأجرجرها، وأرى دمها يسيل على يدي، أضحك لها، أداويها، أنهش جلدها، أصغي إلى بكائها وأمسحها من الوساخة، أدلك جسمها، أتركها تحت جسمي أمارس فيها الحب، حتى أسيل فوقها بكل خيالاتي..

تلك الدمية من لحم ودم وأعصاب..

لها مسامات في جلدها، أعرف كيف أدغدغها ومن أين تغار، لكن عريها كان أجمل ألعابي.

لقد هدأت، هدوء طفل ليس له سوى دمية واحدة.

لم أكن ساعتها في زاوية الزنزانة، كنت في زاوية الزاوية، أحاول حشر جسمي في أصغر بقعة، وما ان اجد رجلي بعيدة عن جسدي حتى ألمها بقوة وألصقها إلى زاوية الزاوية.

لا أريد أخذ مكان واسع من تلك الزنزانة، إنها كافية لمئات الكائنات، الدود وهو يمرح حولي، القمل وهو يدب على جلدي، كافية جداً لهذا الفيل الذي مدّ خرطومه، فشعرت بالراحة إذ هجسته يمد خرطومه إلى فراغاتي.

هل كان الحارس يحدق في وجهي؟ نعم، إنه يحدق بي، ربما قال شيئاً، ما زلت أفهم..

مجنون؟ ربما قال شيئاً كهذا، لكنه قال أيضاً:

- ماذا جرى لك أيها المخبول؟ هل رحت إلى خيالاتك ثانية، سأل عنك السيد ناهي وقال إنه آسف بشأن الخطأ الذي وقعت فيه، وسوف يحاول أن يمنحك عطفه ورحمته.

اسمع، كأن عصباً من أعصابي قد أفاق من غفوته، نظرت إلى الحارس وقلت:

- ها؟

ثم نظرت ثانية إليه وقلت: ها؟

ثم ثالثة قلت: ها؟

وجدت نفسي داخل مملكة الدود والقمل والأرانب، والفيل الذي مدّ خرطومه اليّ ثانية، فتعريت من ثيابي وأعطيت ظهري عارياً لوجه حارسي، حتى وقعت أرضاً، وأنا أبكي من جديد، لأني صحوت من جنوني، فجأة.

* * *

عند أول المساء، رأيت الحارس يجر خلفه كائناً بشرياً، حدّقت فيهما، وتأكدت أنه (يسحب) خلفه انساناً من لحم ودم.

وإذا بهما يقفان عند باب الزنزانة.

أخذ الحارس يضحك مثل مومس تمسك رجلين، وتختار أيهما تختار، سمعته يعلك فراغاً داخل حلقة ويقول:

- خذ، انه زوجها، هل تصدق أن هذا الجرثومة يمكنه أن يفعل شيئاً بامرأة؟

تعمد الحارس أن يحرك إحدى رجليه موازاة الفراغ الذي مدّ إليه الرجل الجديد إحدى ساقيه، ليسقط بكل ثقله على أرض الزنزانة.

وبسرعة، ودون أن يصل إلى عقلي نابض أو شرر يوقظني، بل قبل أن يصل عقلي إلى أية مسافة زمنية بين وقوفه وسقوطه، راح يبكي بعنف - وأنا أمد يدي وروحي اليه - كأنه يحفر شيئاً في روحه بهذا البكاء الحجري، الذي لم تألفه حواسي.. بينما أخذ الحارس يواسيه بهزة من رأسه وهزء لأحدّ له، وهو يضربه على رأسه، وعلى بطنه، لم أصدق أن حارساً في الدنيا يمكنه أن يفعل هذا الفعل بإنسان لا حول له، كالذي جاء به.

وماذا أقول؟ هل يمكن أن أصدق، وهل يمكن أن يصدق أي كائن في الكون، بأني قتلت هذا الحارس بخمس ثوان أو عشر ثوان فقط؟

قلت: ليس من شك في أنه قد مات.

أما الرجل الذي معي، فما كان يدري بشيء، لكنه بعد ذاك الصمت الموجع أحس بأن شيئاً مخيفاً قد جرى، وبهمس وتعب قال وهو يمد يديه كي يعرف أين مكاني.

- من قتل من؟ من الذي مات منكما؟ من الذي معي؟

كان الخوف يقتله ببطء، هو الشاهد الوحيد على القتل، وأياً كان القاتل، قد يجد نفسه بين يديه ليخفي أثراً أو يخلق وهماً يخدع به من يسأل فيما بعد..

ولكني أمسكته من كلتا يديه، وقفت، وبحب لا أعرف سرّه رحت أهمس:

- أنا الذي معك، أنا قتلت الحارس، لا أدري كيف جرى ما جرى، يداي امتدتا إليه بقوة وجنون لم أعهدهما بنفسي أبداً.

* * *

ما كان من شيء يهمني تلك الدقائق، سوى أن أرى السيد ناهي وأعرف أصل الحكاية، حقيقة هذا المأزق الكبير الذي بات يطمسني شيئاً بعد شيء.. لا بد أن أعرف السرّ.

لبست ثياب الحارس، بهدوء، أحاول التأكد من ثقوبها وأزرارها، كنت على شيء من الطول ولم تكن ثياب الحارس كافية لإخفائي، لكن هذا لم يكن عائقاً، لا سيما والليل تسلل نحونا ليخفي بعض خوفنا وبعض (أخطائي)..

وسحبته خلفي، كما فعل الحارس، قلت له:

- إن عليك الصمت وعليّ الباقي.

وبدون جواب عرفت أنه يرتجف، فقلت له:

- هذا الخوف لا يناسب ما نحن فيه.

مشيت به إلى آخر الممر، بهدوء يشلّ كل أعصابنا.

هل كانت الصدف، هذه المرة، تلعب لعبة الحظ معي؟ من يدري، لكن دون أسرار، ولا تعب، بل دون أسئلة ولا اشارة، وجدنا أنفسنا عند أول الشارع.

كدت أصرخ، شعرت بالفرح والخوف معاً، وكان عليّ أن أخفيهما تماماً، لكن أعصابي، وقد زاد هياجها، لم تساعدني على كتمان سعادتي، أو اخفاء هذه الرغبة المدمرة في أن أعوي في نصف الشارع، وصرخت فعلاً، وكان من السهل أن أتبعي صراخي باشارة حمقاء لأول سيارة تمر بنا، لما لم تقف، صرخت ثانية وثالثة، حتى افرغت شحنة طال عليها الترسب في أحشائي، ثم صرخت رابعة لكن بهدوء، صعدنا إلى سيارة نسيت فيها نفسي إذ قلت لسائقها:

- إلى أي مكان تشاء.

كنت قد نسيت، أن ثيابي لا تناسب هذا القول المائع، مما حدا بالسائق أن يقف، يسأل:

- ماذا قلت؟ ألا تريد الوصول إلى مكان ما؟

لما رأيته يحدق في وجهي وثيابي، حاولت أن ابتسم، قلت له:

- عفواً، خذنا إلى محلة «السيد ناهي» في آخر الشارع.

ونزلنا، رحنا نجري، أخفيت من الليل وجهي عن أهل المحلة، حتى وصلنا إلى بيتي، وفيه كان عليّ أن أداري أعصاب أهلي، وهم يرونني بثياب شرطي، ومعي هذا (الأعمى) الذي غط بنوم عميق.

رحت أكرر القصة على أهلي، للمرة الرابعة، وربما الخامسة، أو، لا أدري، ربما قلتها عشرات المرات، فقد تهيأ لي وأنا أرمي جسدي على فراشي بأني أرددها كل ثانية، لكن ثمة صوتاً حنوناً يقول بهمس جميل:

- عليه أن يرتاح، سنعرف كل شيء.

بكيت تحت لحافي، لا أعرف ما إذا تمكنت من اخفاء تشنجاتي أم لا، كل ما أعيه أن عيني راحتا تذرفان شيئاً لا يشبه الدمع، كأنه سائل صمغي، غطى وجهي حتى صباح اليوم التالي.

* * *

أخفيت سكيناً تحت ثيابي، أفردت لها مكاناً أميناً موازاة فخذي.

أخذت معي الأعمى صوب منزل السيد ناهي، ولما مررنا من طرف المحلة الغربي، أخفيت وجهي، وعند بابه الخشبي وقفت ما يقرب من دقيقة، حاولت أن أهدأ وأحدد ما يمكن قوله وفعله.

طرقت الباب كما يطرقه أي زائر، فوجئت بوجه خادمه (ياله من وجه داعر)...

يا إلهي، لم يكن وجهاً بشرياً أبداً، كان أصلع، وعلى صلعته أخاديد وحفر وما يشبه الفجوات الهوائية وفوق أذنيه شقوق تحس أن الدماء ما زالت تغطي مساحة واسعة منها، إذا نظر إليك تستعيذ من هذا الشر الذي يقف على رجلين آدميتين.

أردت أن أقول شيئاً، لكن عينيه ما تكادان تحدقان بي، حتى أنسى.

نعم، لم يكن وجهاً آدمياً، إنه خطأ عابر كان يجب اتلافه رحمة بأعصاب الناس.. تجرأت على أن أطيل النظر، أخفي وجعي وكرهي معاً، ثم قلت:

- أين السيد ناهي؟ عندي معه شغل عاجل.

لم أسمع منه أي ردّ، كأنه انتظر مني كلمة (رجاء) أو أيما حركة تخفف ما أحسه فيّ من حقد، حدست وأنا أنظر إليه بأن أسهل شيء أفعله، قتل ناهي وخادمه القبيح هذا.

بعد ثوان دخلنا باحة البيت.. جلسنا على حرير، وانتظرنا مجيء (المختار) وما كنت أشك في أنه لا يعرف من نحن، رحت أنظر إلى كل شيء حولنا: جلود حيوانية غالية، نمر منقط مع رأسه المحنط، جلد تمساح مع رأسه، بشع، لكنه يوحي بشيء ما تحسّه في الداخل دون أن تفهمه، قطعة من جلد فيل مع ناب طويل، جلود بيضاء خفيفة، جلود أخرى ما عرفت نوعها، أقرب شبهاً بجلود البشر، رحت أنظر إلى سقف الغرفة و.... ذهلت.

ليس من المعقول أن يكون هذا الشيء الذي رأيته حقيقياً.

أنا أحلم دون شك، لكني مددت يدي موازاة فخذي، أتحسس مكان السكين..

* * *

قفزت كمن لسعته عقرب، لا أعرف ما أفعل، كان الخادم يغلق الباب في ثلاثة فراغات لثلاثة أقفال حديدية، سمعت أصواتها كأني أتجرح تحت فراغاتها، شعرت بأني لن أتمكن من فعل شيء في هذا المكان الغريب.

أي إنسان هو «السيد ناهي»؟

كيف يجد، بل ماذا يجد من متعة وهو يشنق كلباً في سقف الباحة؟ ماذا فعل هذا الكلب كي يشنقه بتلك الوحشية؟

لم أقل شيئاً، لم أجب على (خادمه) وهو يقول بصوت يشبه الفقاعات:

- ماذا تريدان من السيد ناهي؟ أنتما أول من يسأل عنه بعد مرور وقت ليس بالقصير؟

لما رآني ما زلت أحدق في جثة الكلب، ابتسم، هذا الكائن المسخ يضحك أيضاً (؟) وقال كأنه يرمي بالمزيد من الفقاعات في وجهي:

- إنه ليس كلباً حقيقياً، هذا ما يفخر به سيدي ناهي، فهو يدهش كل أقرانه على دقة أفعاله.

عندها حاولت أن أمعن النظر إلى كل شيء في وجه خادمه: ملامحه النافرة المعوجة، المنفوخة في مكان، المنبعجة في مكان آخر، ملامحه ليست لإنسان يمكن أن يحس بشيء، لكنه عندما ابتسم، نظرت إلى (الأعمى) الذي ما زال صامتاً منذ ليلة أمس، كأني فطنت إلى (شيء) يتنفس في هذا المكان أيضاً، خيل لي أنه يبكي، جلست إلى جانبه أنظر إلى خادم السيد ناهي، وسألت:

- هل للسيد ناهي أن يأتي؟ آمل أن يكون على أحسن حال.

كأني بهذا أحاول فعل شيء أو أحتال على خوفي وقد تزايد إلى حدّ الإغماء.. ولما نظرت إلى (خادمه) ثانية، وجدت ملامحه حادة وصارمة، وإذا به يقول بمكر وغضب:

- قل ماذا تريد؟ لقد طال مكوثك في بيتي وطال احتمالي لغبائك، أنت وهذا التمثال الأعمى.. ألا تريد أن تفهم بأني الشخص الذي تريد؟

وكأني غرقت في بركة ماء آسن.

* * *

هل كان هذا الوحش، هو (ناهي) مختار محلتنا وآمرها وسيدها؟

مرّ على بقائي في هذه المحلة سنوات طويلة، لم أعرف فيها أن المختار الذي تذهب أوراقنا إليه لختمها، الذي يساعد على التوسط في زواج بناتنا، والذي بيديه نصف افراحنا وعذاباتنا، هو هذا الوجه المريض، هذه الفقاعات الصوتية، هذه الدمامة الحيوانية المدمرة، هذا الذوق الوحشي في الديكور، وهذا الذي كان السبب في تشنجاتي وجنوني؟ هذا هو؟

ولم أصدق، لم أستطع اخفاء شيء من انسحاقي وانفعالي لتلك المفاجأة القاتلة؟ وكأن هاجساً سرّياً هذا الذي جعل يدي تمتد إلى فخذي، ولما تأكدت من وجود السكين، تنفست بصعوبة، وبعد وقت طال عليّ جداً، همست كأن يدين تخنقان أوردتي:

- أنت السيد ناهي؟

واحتارت كل حواسي، ماذا أفعل في تلك الثواني، ورأى ناهي ما وصلت إليه من حال، فقال يساعدني على الوصول إلى شيء تهت عنه:

- من أنت؟ لماذا جئت إليّ؟ هل أنت من أبناء المحلة؟ ما اسمك؟ من الذي معك؟ إنه أعمى كما أعتقد، أليس كذلك؟

لم أجب على شيء. كأني ببطء رهيب أدخل في قاع من الرمل، راح يغطي كل مساماتي، أنزل في الرمل، ما من شيء يسندني أو يهب لنجدتي، ولما هجست أني بدأت موتي، سمعت صوتاً خلته قوياً ورائعاً:

- يا سيد ناهي، هل تعرف سمية بنت الحاج؟ تعرفها، ليس من شك، أنا زوجها، جئنا لنعرف منك سرّ قتلها؟

عندها أفاق جزء من جسدي، وجزء آخر من عقلي، نظرت إلى (الأعمى) بشيء من الفرح، وخلت أني قلت أيضاً:

- كيف تراها قتلت عند بابك أنت؟

قال ناهي كأنه لم ينتبه إلى أية إشارة من إشاراتنا:

- هل تذكرون ليلة اختفاء السيدة وجدان؟ في الليلة نفسها قتل زوجها (معتوق) وبعدها بأسبوع أعلنت جرائدنا أن زوجة حسن قد اختفت بظروف ما زالت مجهولة، وثمة ردود سريعة وأسئلة غامضة تكررت بشأن السيدة (عليا) وأخت الملا معروف، كل هذا جرى في أقل من شهرين، في نفس هذه المحلة، وما زلت أنا الرجل الذي تكال إليه المسؤولية، وأول من يراد منه إجابة أسرار أنتما أول من سيعرف أدق تفاصيلها.

ولم أفهم جيداً مغزى ما يريد اثباته، نظرت إلى الأعمى، وجدته يبل شفتيه وهو يردد:

- نحن يا سيد ناهي؟ نحن ماذا؟ ماذا تريدنا أن نعرف؟

أما يدي، فما زالت تحن إلى التأكد من فخذي، وإن كان ما زال يحمل طوق نجاتي.

...

راح السيد ناهي إلى إحدى الغرف، وبعد ثوان سمعت أصواتاً حادة خلت أنها أقرب ما تكون إلى أصوات آلات معدنية، ثم إذا به يخرج من غرفته، يحمل مفتاحاً من النوع العتيق الذي كان يستعمل

في بيوت اليهود، وعليه لمحت علامة لم أعرف معناها أكثر شبهاً بجمجمة تحتها عظمان، ينتهي كل منهما بخنجر.. عظمان محفوران بلون أحمر داكن.

قال بنفس لهجته المليئة بالفقاعات:

- تعالا معي.

قال الأعمى:

- إن كان لشيء (يرى) فلا حاجة لذهابي.

لكن السيد ناهي أجاب تواً وبصوت آمر:

- تعال أنت أيضاً، ألا تريد جواباً على ما قلته لي؟

ذهبنا معه، دخلنا ممرات تزداد عتمة كلما ازدادت المسافة التي نقطعها، لا أدري كيف أو لماذا مددت يدي تحت بنطلوني، أمسكت بالسكين بقوة كأني أحمي نفسي من هذا الخوف الذي يسري في كل عروقي، ثم إذا بنا في سرداب، شيء أشبه بالجب، قلت لناهي:

- أما من ضوء؟

سمعت فقاعاته تأتي خافتة:

- انتظر.

وانتظرت.. ثم وجدت نفسي، وقد تسرب الضوء فجأة إلى ذاك الجب، داخل دائرة من الهواء البارد، مما حدا بي إلى ترك فخذي، رفعت يدي وحاولت أن أحمي جسدي من البرد الذي تسلط فوقي.

قال ناهي وهو ينظر إلى سقف الجب:

- ألا ترى ما في سقف المكان؟

رفعت رأسي..

هل تراني رفعت رأسي كي أرى موتي يضحك مني؟ أيّ رجل هذا؟ دارت بي الدنيا وهجست أن رجليّ ما عادتا ترفعاني، لكن هاجساً آخر في داخلي يردد:

- إذا لم تحتمل فهذا موتك، إذا لم تمد يديك إلى سكينك حالاً، فأنت هالك، هالك بدون شك.

وفي ثانية من تأريخي، لم أحسبها من اليقظة في شيء، أخرجتها من تحت بنطلوني وفتحت شقاً أفقياً في وجه ناهي، وشقاً آخر عند أنفه الذي انفصل عن رأسه، رحت دون وعي وبلا إحساس أغرسها في كل سنتمتر مربع من جسمه.

هل كان يضحك؟

هل كان قد مات؟ هل كان يدري بأني آخر إنسان يدخل بيته؟

* * *

ليس من شك في هذا كله.

لقد كان يضحك من موته، ومات، وكان يدري أن إنساناً مثلي، أنا نفسي، سأكون موته ونهايته، وجدت سبابته وهي ميتة، تمسك شيئاً عند فتحة إحدى جيوبه العليا، كأن هناك شيئاً ما، ورقة مطوية، لا أدري لماذا رفعتها وأنا أسمع:

- قتلت السيد ناهي؟ كيف تراك تقتل الناس ولا تخاف من غدري؟ ماذا رأيت؟ ماذا يجري؟ لماذا تثق بي؟ قل كل شيء، قل لي أي شيء، ماذا رأيت أرجوك؟

هدأت...

لم أعرف الهدوء، قلت بهذا الموت الذي تسلل إلى أعصابي، بهذا الهدوء الذي لا يشبه الهدوء:

- لقد مات، لم يعد من شيء حي في هذا المكان، قتلت ناهي ولا أدري السرّ بعد، سقف هذا السرداب مليء بالجثث المشنوقة، كلاب، قطط، جثة السيدة وجدان، عليا، بهية أخت الملا معروف، ونمور، زوجة سيد حسن، وآخرين لا أعرف من هم، لا أعرف، ليس هذا حلماً، أنها جثث عشر تتدلى في حلقات حديدية ولكن.. لماذا قتل زوجتك ورماها قرب بيته؟ لا بد أن نعرف كل شيء، أن نفهم السبب، لماذا يزداد غموضاً كل ما حولي؟

صرخت، لم أعد أحوي شيئاً في جسدي سوى الصراخ.

ما كنت أدري، بأني، إبان حالة العواء واليأس، حشوت الورقة المطوية في جيب بنطلوني، أخذتها من (ناهي) ولم أقرأها بعد.

* * *

كانت إحدى الجثث مرمية عند زاوية السرداب «ثياب حمر مزركشة بالدانتيل.. امرأة ليس من شك في سحرها وحلاوتها، إذ أنها على موتها وشروخها المفتوحة بالسكين، تحمل أعرض عينين رأيتهما في حياتي، مفتوحتين على اتساعهما، كأن شيئاً غامضاً تريدان كشفه».

وعند حافة أذنها اليسرى دم متخثر، قرب بطنها قرأت «زكية حمدان ٢١ سنة ثلاث مرات فقط» وقربها نصف شبر من دم أسود، لم أفهم سوى اسمها وعمرها، مرّ في بالي أن أصرخ، لكن الدهشة والفزع، وهما يتسربان نحو معدتي، ما أفسحا أية فرصة لفعل أي شيء.

مرّت عليّ الدقائق.

هل كان حسابي عادلاً في ذلك الجبّ الوحشي؟ تحددني الرعشة في نقطة واحدة لا أقوى على تركها، أحدق في كل شيء من مكان واحد، ضمن حدود لم أتسلل عبرها، وحسدت «الأعمى» إذا كان يهمس بي وهو يجرني:

- أما زلت معي؟

كدت أصرخ في نصف عينيه: ألا تشعر بيدي؟

لكن لساني وعقلي كانا في حدود أضيق، ليس بإمكاني تجاوزها، أما «ناهي» فقد تحول تحت نظري إلى كتلة من دم فاسد، إلى شيء لا يشبه أي شيء، خارج البشرية وداخلها في آن واحد، لا أعرف ما دهاني، يدي لا تكاد تقوى على شيء سوى التأكد من سكيني والتأكد من صحوي، حتى تلوثت بعرق دبق وذي رائحة.

* * *

مرت فوق رأسي (كاترين دينوف) وأنا أفكر في حاضري، تختفي، وترجع إلى نفس مكانها، حتى امحت بهدوء، كأنها تحلني من كابوس اضافي لا أدري أن كنت صنعته بنفسي أم صنعوه لي.. قلت لها:

- سيدة الحزن والجمال، دينوف، سيدتي، ليس هذا وقتك، شكراً.

كان الموت يحمل ألف اشارة، كل اشارة تقول:

- حظك اليوم أن تقتل، أو تختفي، أو تحنط، أو تجن، أو تسجن، أو تصاب بعاهة لا شفاء منها.

والتفت فجأة إلى (ناهي) كأنه لم يمت أبداً، وفي الوقت نفسه راحت يدي تمسك قبضة السكين، وصرخت:

- من أنت؟ من هم؟ لماذا أنا؟

وانسلخت عن هدوئي، نظرت بذعر إلى كل الوجوه المحنطة، خيل لي أنها تقول بصوت واحد:

- قتلونا، ولا أحد يدري بنا.

* * *

ماذا يحوي هذا الرأس؟

لم أعد أفهم سرّ هذه الشحنات الكهربية، تسحب كل قطعة من لحمي.. هل تراني خسرت عقلي؟ من هو ناهي؟ ولماذا تمر على ذاكرتي جثث ودماء وأعضاء مشوهة؟

أي طفل داخل هذه الروح؟ أما زهق من القتل والموت؟ من يلعب داخل هذا الشريان الطويل، الذي يمتد حول القلب وحول فراغات معدتي؟

في أية ساعة من عمري انقلبت كل أشيائي، حين أعرف لهجة الداخل وهو ينبض بدقة وهدوء، وحين لا أعرف حتى لهجة لساني وهو يبل مساماته شيئاً من القهر.

لقد مات وقت الضحك دفعة واحدة.

ينهش بي هذا القهر الغريب وأنا وحدي، معزول عن كل شيء، عن كل إنسان، مهما أحاطت بي الشوارع والبارات.. معزول؟ إنها آخر وأقرب ما يجيء على نخاعي من أحاسيس، حياة داخل الموت، موت داخل الحياة، ليس من جواب أنتهى اليه، أبداً..

* * *

أرحنا أنفسنا بعد أن وصلنا إلى باحة البيت ثانية، وجدت نفسي هادئاً وخفيفاً.

إن الحال الذي أنا فيه، ضد أيّ قانون بشريّ، كأنّي - فجأة - لست الذي قتل السيد ناهي، لست الذي راح يولول ويصرخ مثل طفل يرى أمه تحت أنقاض بيت؟

كان (الأعمى) في حال لم أفهمه، صامت مثل خشبة مبللة، ما ان ألمسه حتى أحس بأنه يغرق في عرق يسيل على كل جزء من جسمه، بل إن ثيابه من أعلى الياقة إلى أسفل بنطلونه معروقة ناضحة بما يشبه البول.

هل ترى بال على نفسه فعلاً؟

من يدري ؟ كل شيء ممكن في هذا المأزق الذي دفعنا أنفسنا فيه إلى نهاية الشوط.. همست قرب أذنيه، كأني أخاف أن يسمعني أحد ما في ثغرة من البيت أو خلف حائط من حيطانه:

- ماذا نفعل؟ حاول أن تقول شيئاً.

هل انفجر شيء ما في رأسه؟ لقد راح يضحك: انبعاجات لحمية لا أجد أيّ فرق بينها وبين انبعاجاته وهو يبكي، لكنه قال من تحت فكه المتصلّب وهو ما زال يضحك بجنون:

- ألا تدري ما نفعل؟ نقتل كما قتلنا.. ماذا نفعل؟ إنه آخر ما يجب أن يطرأ على بالنا، فالجواب بسيط جداً..

لم يكن يهزأ كما خلت أول مرة، مد يديه إلى وجهي، تلمسه بحنان، وقال بلطف:

- أرثي لك ما صنعت بنفسك، إن عليّ أن أفكر بالنيابة عنك..

يجب أن تعيش، أمثالك لا يستحقون الموت، ماذا كنت تريد أن تفعل؟ ما الذي أوقعك في هذه الورطة؟

عندها بكيت كثيراً، كأني أتوسل إلى الحياة أن تحمي عقلي، بكيت..

آخ ما أحلى هذا البكاء، وحده حياة أخرى، أدخل فيها بوجد وعشق، قلت في داخلي بعناد:

- ابك، ليس من شيء ينقذ ترسباتك غير البكاء، يا ضحية كل الصدف الحمقاء ابك.. ابك.

وطوقت نفسي بالرضا، كأني أعطيت العالم كل الحق في أن يصنع قدري..

* * *

كانت العتمة، مثل طائر دموي، أحسها تنهش في عظامي، هناك في الممر، لا أدري من أين حلقت فوق شعري (كاترين دينوف) وإلى يسارها العتمة، طائراً دموياً.

ليس هذا بيتاً عربياً، ولا أوربياً، إنه حالة، أو شيء من التوازن بين أشياء الإنسان وأشياء الوحش، له تعاليمه وخارطته، لمحت (كاترين) تضحك وتقول:

- الصبر طيّب، أنت جميل، والله يحب الجمال.

كاترين دينوف تنطق بلهجة عربية، يمكن أن أسمعها من بدرية الخبازة، لكن دينوف تقولها بلكنة وحشية بها تنتمي إلى أشياء البيت.. ولا أعرف لمن هي كانت: للوحش أم للضحية؟ للقاتل أم للقتيل؟ للسيد ناهي أم لي أنا؟

العتمة تبدأ، بكل قوتها، تطفيء وجه كاترين، وتحلّ محلّها، وأرى البيت لمرة واحدة: بيتاً عربياً، وحشياً لهجته تمس الجلد ولا تدخل في الروح.. خارطته معوجة ليس لها بدايات ولا نهايات صحيحة، دخول في شيء، ومنه إلى شيء آخر، لشيء داخل ذاك الشيء، داخل أشياء لا تنتهي إلا بفقدان خلية أو عضو أو دم من كمية ما أحمل.. وهل تراني وصلت؟

البيت كان بيتاً وحشياً، وأنا في الممر، لا دينوف ولا جمال وجهي، ولا الصبر الذي حاولت أن أحتفظ به.. وصلت مجنوناً، ورأيت موتي.

* * *

بعد بكائي الذي طال، مدّ الأعمى يديه وقال:

- لنذهب، لن يعرف أيّ إنسان بما فعلت، كان من حقك أن تفعل ما فعلت، لا تحاسب ضميرك، أنت بريء، وإذا كانت سمية قد قتلت، فأنا أعرف سرّ موتها..

ماذا كان السرّ؟

لم يقل شيئاً، كأنه لا يريد أن نغرق في عذابات أخرى، واكتفى بأن أجاب:

- عما قريب لا بد أن تعرف.

خرجنا إلى المحلة، خرجت بطولي كله وبوجهي كله، لم أُخْفِ شيئاً، كأني سلمت نفسي للناس وللموت، لكن وجهي لم يفاجيء أية امرأة ولا أي رجل ولا أي طفل في طول وعرض المحلة، تجرأت على تحية السيد عثمان وردّ التحية بأحسن منها وكررت التحية على حاج حسون ورضا، سمعت عثمان يضحك معي ويقول:

- ألا تدري أن جريمة قتل وقعت قرب بيت المختار؟

بينما قال رضا:

- تعال مساء إلى مقهى حسون، السيد ناهي لديه بعض البشائر.

أجبته كأني لم أقتل انساناً هذا اسمه:

- حسناً سآتي مساء.

شعرت بوخز حاد داخل أمعائي وقلت في ذات نفسي:

- سأذهب، لا أريد أن أخفي نفسي ما دام عثمان ورضا لم ينتبها لشيء، حياتي في كفة حوت، اما أن اغرق في القاع أو أحصل على حياة أخرى.

وجاء المساء، نذير له رأس وعيون.

رأيت اثنين في طريقي، قال الأول:

- هل رأيته؟ إنه السيد ناهي، لا أدري ماذا يريد من أهل محلته؟

قال الثاني:

- أرى وجهه غاضباً وعاصفاً.

تقلّبت أعصابي على نار، أحسها تتصاعد من كل خلايا جسدي، وهمست:

- انتظر، دعك من التهور، لا بد أن خطأ رهيباً قد حدث.

مشيت إلى المقهى، أجر معي (الأعمى) وهو يلهث:

- هل سمعت؟

قلت له (نعم) وأنا أرتجف، كأني أخسر كل شيء، وعند المقهى رأيت أبناء المحلة ينتظرون المختار، أخفيت وجهي خلف بعض الرؤوس، ثم جاء ناهي، راح الرجال والنساء يصفقون له بقوة.

من خلل الرؤوس نظرت إلى الرجل، كأنه يتحدى كل خلية ما زالت حية في جسدي، ولكن؟ ماذا رأيت؟

كان وجه ناهي من تلك الوجوه ذات الحرص على اخفاء تآمرها وطمر مشاعرها في مخبأ ما من الجسد، تحس عندها الأمان والفرح، لكنك داخلياً تريد ألا تصارحها بشيء، أما أنا، فقد خلت أن هذا (الناهي) ليس له قلب ينبض على طول جسمه وليست له الروح التي تئن أو تحزن لشيء، حتى رؤية طفل تتناثر أعضاؤه في الهواء؟

* * *

كان رأسي يهتز، كأنه كرة مطاط يلعب فيها شبحان يحوطان كياني.

أمسكت رأسي، أصغي لما يقوله ناهي في هذا الحشد من الناس، وهم ينظرون إليه بعيون شبقة كأنه امرأة تمارس الحب علناً.. سمعته يبدأ، كمن يهيء كل تلك العيون إلى المفاجأة:

ـ كنت آمل أن تكون بشائري لكل فرد من أبناء محلتي، لكن تشاء ظروفي التعسة أن تقف بوجهي، فقد رجعت بعد ظهر اليوم إلى داري ووجدت خادمي جثة مزقتها عشرات الطعنات.

. . . .

راح الرجال يتهامسون بصوت عال، كل واحد يبعث آه أو يطمر في داخله فرحاً لئيماً، كان من السهل أن أعرف بأن البعض يكرهون خادمه الذي قتلته، وبينما رجع (السيد ناهي) لتتمة ما قال، فطنت إلى (الورقة) التي سحبتها من جيب خادمه.

كانت الحروف مخطوطة بالدم، بالدم البشري (؟) نظرت حولي وأخفيتها ثانية، أقول في نفسي:

ـ سأقرأها في وقت آخر.

وراحت أذني تنصت إلى (الناهي) وهو يصرخ:

ـ لست أدري من هو القاتل، ربما كان لصاً، لكن خادمي كان وديعاً وكتوماً، وقد حافظ على كل شيء في داري، ولما فوجئت بجثته عند باب البيت، قلت لنفسي لا بد أن لصاً أراد أن يسرق.

. . . . .

ولم يستطع عقلي أن يقف عن الحركة والدبيب، هذا الناهي يقول إنه (رأى خادمه عند باب البيت).. سمعت الأعمى يشخر:

ـ هل سمعت؟ إنه كذاب داعر، لا بد أن آلاف الخباثات قد تعمدها في حياته، وبدون أيما مسّ من الخوف.

وبدون خوف أيضاً، أخرجت الورقة، وقرأت فيها:

ـ «إحذر أن تفعل شيئاً في غيابي، كدت تأخذنا إلى المشنقة، وقد تجرنا اليها إذا بقيت مصراً على البقاء وحدك في البيت، أعرف أنك لن تشي بي ولن تعمد إلى موتنا معاً، لقد ربيتك منذ طفولتك وكل شيء فيك إنما هو مني، حاول أن تصدق أن قتل الناس لا يناسبك في شيء، وخير دليل على ذلك ما أوقعتنا فيه من جراء ذبحك بنت الحاج، إنها مسألة تحتاج إلى دراية وفهم وفن، وإلا فاحت رائحة الجثث على بعد آلاف الأمتار، أحذرك، وحاول أن تصدق أيضاً بأني سأغفر لك (طردي) من البيت، ذلك أني ما زلت أراك مثل طفل يعبث في النار ودمت لسيدك ووليّ نعمتك الدائم، ناهي عاشور».

. . .

وهنا فاحت رائحة موتي من جسدي.

أصرخ:

ـ مت كما يموت الرجال، قل ما تعرفه الآن، أمامك قاتل كبير، وليس من الرجولة أن تهدم حياتك مرتين، قل ما تعرف، الآن.

* * *

لماذا، ومن أين يأتي على ذاكرتي وجه طفل؟

النمش الذي يغطي أنفه، يفرش فوقي إحساساً بالخوف من كل آلات العصر.. ما هو سرّ هذا الوجه وقد عاش معي، تغلغل في لحمي وراح يوازي أنفاسي جنباً إلى جنب مع كل شهيق، يوازي كل نبض في صدري، وآلات العصر، طائراته، صواريخه، آلاته الكاتبة، تلفوناته، تأتي مرة واحدة ضد هذا الوجه كأنها تريد أن تزيله أو تثبت قدرتها على تشويه براءته.

تائه مع هذا الوجه،

ألمه تحت أصابعي وأخفيه طيّ ثيابي، أحميه من الجنون والموت، من أسلحة المكر واشعاعات الذل، هذا الوجه قد يكون قاتلي وأنا أبحث عن حياته وسعادته، وقد يكون اختفائي ضحية لمجيئه.

لا أعرف حتى هوية هذا الطفل ولا طبيعة عقله، ربما أنهي نفسي لشيء لا يستحق أن يعيش بعدي.. من يدري، كان أبي يقول:

ـ النار تخلف الرماد.

وأنا خائف على ناري، أن أحولها بنفسي إلى رماد، ترميه الرياح إلى لا مكان، إلى لا وجود؟

وجدت نفسي أمشي، داخل الكتل البشرية، أفتح فيها مكاناً لوجودي الذي شعرت به لأول مرة، وقفت في منتصف المقهى، بينما حدق بي (ناهي) كأنه عرف السر.. ضحك بوجه بشوش لا أدري لماذا شعرت بأني (صامت) وأن كل شيء حولي (صامت).. السماء، الأرض، الناس، الجدران، الطيور، كلها صامتة، لكن يداً أعرفها، امتدت إليّ بحب عظيم، وصوت كأنه الرحمة، يقول:

- ارجع يا صديقي، ارجع، ماذا تريد أن تفعل بنفسك؟

هاجس يشم أفكاري، يجيء نحوي، يمد يديه إليّ، ساعتها لم أكن بحاجة إلى شيء كما حاجة روحي إلى يدين تشدّان دمائي وتعيدانها إلى أوردتي وتجاويفي..

الناهي والناس ينظرون إلينا، وببطء، بدأت موجة من الضحك، لا أدري أي هاجس دفع يدي بالورقة إلى أعلى، ليراها كل فرد، رحت أقرأها بصوت عال جداً، بكل ما في حنجرتي من رقة وضنك، قرأتها حرفاً حرفاً، أشد على كل كلمة أقولها وأنظر إلى (ناهي) أحول دون هروبه.

كان كل واحد وكل واحدة من الناظرين إليّ، يفتحون ضمائرهم لتتسع وتصدق هذه اللعنة التي أحاقت بهم جميعاً، حتى امتدت أيادي كل الناس تجاه السيد ناهي، الذي وقف شامخاً وراح يصرخ بكل ما تتسع له قصباته من صوت:

- مهلاً سادتي، أبناء محلتي، ألا تجدون من العقل أن تتأكدوا من الخط الذي كتبت به هذه الكلمات المشوهة التي لا تنتسب إلى الإنسانية في شيء؟ هل يمكن أن يكون كاتبها انساناً يتنفس ويحس؟ إذا كانت لديكم هذه الشكوك فكل واحد منكم يعرف خط يدي، وان وجدتم شبهاً، مهما يكن ضئيلاً، بين خطي وهذه البشاعات، لكم الحق في قتلي هنا، أو لكم أن تقفوا بوجه هذا البائس الذي دفع بنفسه إلى الفتنة والهلاك.

. . . .

كان من السهل أن يجد كل واحد من أبناء المحلة أن (الخط) لا يمت بأية صلة مهما تكن ضئيلة إلى خط السيد ناهي، وشعرت بأني أنسحق تماماً، لاسيما وقد قال ناهي بارتياح عجيب:

- كما أن اسم أبي ليس (عاشور) وإنما (آشور) وهذا ما تقوله أوراقي وختمي في بيوتكم جميعاً.

ذبذبات في مخي، تعيد عليّ ملامح وجه الخادم، وهو يشير إلى الورقة، إلى إشارة موتي، وعندما راح كل واحد يبصق في وجهي، سمعت ناهي:

- لنرَ - الآن - خط صاحبنا الذي جاء بهذه الرسالة.

ومدّ قلمه يأمرني:

- خذ اكتب، ها نحن جميعاً ننتظر أن تكون بريئاً من التهمة.

* * *

لو ترك لي اختيار موتي، لما كنت بأية حال أفكر في قتل نفسي تحت أيدي مئات البشر..

ربما أختار حرقي، أو قتلي برصاص..

رحت أكتب حروف الرسالة نفسها، وفي داخلي هاجس غامض يقول:

- إنك قد كتبت شيئاً كهذا، ربما في حالة اغماء أو خدر أو حالة ما لم يعد لها من مكان في الذاكرة.

ما ان كتبت تلك السطور، حتى جرها ناهي وقال كمن يصارع:

- هل يوجد أي فرق بين هاتين؟

يعوي، كأنه يشير إلى أبناء محلته «إنه لكم، ليس من شأني أن أحكم على وحش مثله».

عندها التف حولي رعب لا تتسع له جيوش.. والتفت حولي ذاكرتي تسعف موتي من هذه العيون التي تدور، تلتف، تئن، تشخر، تمر في داخلي قبل أن أحس لحمها فوق لحمي... هل كنت أبكي؟ أبداً.. لم تتسع دواخلي لشعور بالرجاء أو توسل للرحمة.

امتدت أيدي وأحذية الناس، فوق كل مليمتر مربع من جسدي.. صراخات نساء ورجال، وآهات حزينة تدخل ذاكرتي، لصديقي، وقد مدّ جسمه - بمعجزة - فوق جسمي، هكذا توهمت أول النجاة.. وراح يصرخ بحمى ذابحة:

- امهلوني دقيقة واحدة، أرجوكم.

لم يكن لصوته من ردّ سوى أن جسدينا باتا تحت رحمة كل الغضب الذي سمّر الناس فوقنا، لكنه ما زال يجهش بحنجرة تعاند على البقاء:

- أليس من أحد يريد الحقيقة؟ امهلونا دقيقة واحدة يا ناس.

. . . .

ومثل حلم رائع، بدأ البعض يصغي لحنجرة تتوسل، سمعت امرأة تقول بصوت نابح:

ـ ما بال عقولكم، ربما يريد أن يقول شيئاً هاماً.

وببطء، بدأ البعض يحاول أن يمنع البعض الآخر بالكف عن (قتلنا)... لا أدري لحظتها كيف تمكن الأعمى من النهوض وكيف قال:

ـ إنما تقتلون إنسان بريئاً، لا ذنب له سوى خلل بسيط في عقله، لقد كتب صديقي هذا أشياء خطيرة أخرى دون وعي بما يفعل.

خلل بسيط؟

في عقل من؟ ماذا يقول؟

راح يحرك يديه عالياً:

ـ كنت في طريقي معه إلى شعبة (الصدمات) عندما وجدنا السيد المختار يقول كلمته، وقد جرى ما جرى، وكان فعله لا يدل على شيء سوى أنه يعاني من أوهام لأحدّ لها.

عندها مدّ يديه إليّ كي أنهض، لكن جسدي كان مشلولاً من الضرب، ولم أستطع، وهنا مدّ إليّ البعض يد العون، نفس الأيدي التي كادت تنهي أنفاسي.

شيء واحد تمكنت أن أتأكد من أني رأيته جيداً، وجه ناهي وهو يضحك، كأنه يقول لي: «أيها المسكين من أنت كي تجابه داهية مثلي؟ من أنت لتقف بوجه جبار يمكنه أن يلعب بك كما يلعب بخاتمه؟»..

نظرت إلى أصابعه، وجدته يلعب بخاتمه فعلاً، وعرفت أن حسي لا يخطىء، وأن لا شيء في جسدي وعقلي يعاني أي خلل، رغم هذا قلت للأعمى:

ـ لقد أرجعت إليّ حياتي، لكنك في عقول الناس خلقت (وهما).. هل تراني أعاني من خلل في عقلي، وانك من يريد أخذي إلى تلك (الشعبة) كي تخفف من عيوبي؟؟

شعرت أنه ينظر إليّ بتلك المساحة المحفورة في رأسه.. وهجاً خفياً يحدق في أعمق ما في نفسي، قال بهمس، وقد قرب من أذني شفتيه:

ـ وحدك من يعي كل شيء، لكن الناس لا تريد أن تعرف، انهم سعداء بالكذب الذي يسمعون.

عينان خاليتان من الضوء..

الضوء في الروح.

أنف متآكل عند الغضروف، ملامحة لا تعطي ردود فعل ما، وقد طال الوقت ولم أجد ألماً ـ ولا خفياً ـ على تجاعيد خديه أو قرب هاتين الحفرتين.

هل وصل التعب بعقلي أن يأخذ أجساداً ويحفر فوقها أسماء؟ أية حياة غامضة يعيشها رأسي؟

ليس هذا حلماً وليس كابوساً، وأنا، بطبعي، لست حالماً ولا خيالياً، ولست ماهراً في صناعة أي شيء مهما يكن بسيطاً، فكيف بي أتوهم أن عقلي (يصنع ملامح وأجساداً؟ أحقاً يجري هذا؟) أين الحارس وناهي وخادمه والجثث المرفوعة في حلقات؟ ملامحها، أمكنتها، من يعرف الجواب؟

* * *

هذه الخارطة السرية، تحمل بيوتاً وأجساداً لرجال ونساء، قد يكون محورها عقلي فقط، لكن يقيناً دافئاً وأكيداً يوعز لي أن كل شيء مرّ على عيني، كان حقيقياً لا تنقصه أدلة، إنها ليست مرئيات من صنع خيالي، إنما أجساد وأماكن ودماء وآلات وأعضاء وأسماء عشت بينها وفي كينوناتها، ليس من شك في هذا، أنا أعرف نفسي.

عندها سمعت من يقول، وهو يربت على كتف الأعمى:

ـ أنت تقول له كلاماً لا يقال لمجنون، هل تراك تكذب علينا؟

كانت السماء صافية هادئة،

ليس من شك في أنها كانت كما تخيلت، وبنفس الصفاء والهدوء الذي تسلل منها، قال صديقي:

ـ علينا أن نجاريه على حدّ عقله، إذا كلمته كمجنون، زاد جنوناً.. واحترت فيما أسمع (!).

لمن تراه يقول الحقيقة؟ لي أم لهم؟ ولم أستطع الوصول إلى يقين.. لم أقف أبداً على السرّ في هذا الانقلاب العجيب الذي يمارسه معي، ومرة أخرى «معهم».

* * *

خذني بيديك إلى جزيرة خالية..

لا أحمل في جسدي ذرة من البطولة، فقد فعلوها بي «لا شمس، هواء فاسد، رأسي محشو بالعزلة والشوق والبكاء، لا شمس معي، لا أحد، تدبّ على جسدي جيوش من القمل والدود والكوابيس، وأنا، رقيق كالموت، ذابل كالفرح، مشروع لم يدخله انسان، عند

طابور الشجاعة وقفت باكياً، وعند طابور البكاء. وقفت كما يقف الشهداء» . .

كل عضو في أجساد الشرطة قال لي:

ـ أيها الكلب، على من تحاول بيع بطولاتك؟

من يفطن إلى هذا الصوت النبوي الحزين، بكائي، وفيه أقول بلا خجل:

ـ كان من الممكن أن تكون «راقصاً» و (دون جواناً) خطيراً، ماذا دهاك لتكشف أسرار المختار؟ ومن دلك على الجثث لتعدها جثة جثة، نسيت أن الحياة جميلة ورائعة؟

وحدك الآن،

لانساء، لاسفر، لا شيء، لا شيء.

* * *

ورغم الرضوض التي شلت جسدي، العذابات التي سحقت عظامي وروحي، وجدت نفسي أقف بكل طولي داخل الحلقة الممتدة حولي: نساء، أطفال، عجائز، رجال، ومثل رجل يفقد كل شيء، أخذت أرقص بكل ما أعرف من حركات بشرية. . . رقصت على هيئة رجل مقتول ،على شكل حبلى ترمي طفلها «هل رقصت حبلى في الكون وهي تطرح طفلها؟» .

التويت، أبعدت رجليّ وقربت شعر رأسي من وسطي، هل تراني تعريت من ثيابي؟ أرقص بكل حمية اعضائي، الوارمة، رقصت قرب امرأة قالت:

ـ ما زال في أحسن صحته، حرام.

وقالت أخرى:

ـ يا لعقله، يا رب رحمتك.

لم أعرهما انتباها، رحت أرقص مثل حمار «هل كان ثمة حمار أنا أحسن حالاً من حاله»؟ . .

أعطيت يدي أتوسل أن يرقص معي أياً كان، ليس هناك من يعرف رقصة الحبلى ولا رقصة الحمار ولا رقصة إنسان يقتل. . وما كانت ثمة حبلى تحمل آلامي، ولا من حمار يحمل أثقالي، ويا لها من خسارة، هم يضحكون حولي ، وداخل نفسي أعرف أي زيف يصبغ أجسادهم.

لماذا أعطيت نفسي لهذا القتل البطيء؟ ومن هم الذين أحتمي بهم؟ هم يختارون الراحة وأنا أختار الهلاك والقلق. . .

ـ ماذا أريد؟ ماذا أفعل؟ صفر لا مكان له، أتوسط أصفاراً، أنا ومن معي، مجرد أشياء تباع بالثمن الذي يحدده أو يرفضه ناهي، إذا قال كن عندها تكون، وإذا قال كفى، عليك أن تكف.

ما شأنك أنت؟

تدري ما يعنيه رأسك حين تتعب: ويحكي عن (الواحد + واحد) وإذا كان من الضروري أن يساوي ثلاثة، قلها وارحم نفسك، فهم لا يريدونك أن تعرف.

طال بي الوقت، تلوث عقلي، أصرخ ملء حنجرتي:

ـ لا أدري، لا أفهم، تلوث عقلي، أصرخ ملء حنجرتي:

ـ لا أدري، لا أفهم، لا أعرف شيئاً، لا شأن لي بشيء.

لم أعرف صحواً حقيقياً، لم أع أين ذهبت، ولا من أين رجعت، لم أعد أفهم أي شيء، كل ما أدريه أن الأعمى ما زال معي، منذ وقت طويل جداً، وأيضاً، ما زلت أعي وأثق تماماً أن الجثث تئن في بيت ناهي، وأنها تزداد يوماً بعد يوم ومن يرقص مثل (حمار) ليس له الحق أن يعترض.

لكن شيئاً أقوى من حبيبات عقلي: وهاجساً أعمق من خلايا مخي، وحساً داخلياً ممزوجاً بالراحة، ما زال يقول: «إن هذا البيت، عندما يموت ساكنه ويفتحه أهل محلته، سيرون الذي رأيت، ويومها سيرقصون مثلي: رقصة الحبلى ورقصة الحمار، على ما غريب لم يكن صحياً ولا هادئاً أبداً» .

* * *

ترى، هل يحمل اسماً، هذا الطفل الذي يخنق وجداني؟

أليس من اشارة أجددها له: هل أقول انه (طفلي) ومن صلبي الذي يحدد لونه ولون عينيه وملامحه جميعاً، ما هو سرّ هذه الروح، تبحث عن ارث وأساس لبقاياها؟ بعد أن ذبلت وتشوهت داخل جسمي؟

هل تراني أحمل أسماً أتركه لهذا الطفل الذي يحوم داخل ذاكرتي؟ . . لست أدري نوع دمي، في رأسي صدى للحب، صدى للفرح، صدى لوجوه ما عاد من السهل أن تحب، أبحث في مدارات رأسي عن (طفل) أريد له الخلافة بعد موتي، وأنا لا إرث لي أعطيه سوى صدى لحياة: صدى لشهيق، وصدى آخر يشبه الهسيس، أهجسه يقول لي:

ـ كان عليك أن تقف عند حدود عبوديتك.

الفرح التالف، هذا القسط الذي احتفظ به لنفسي، أن أرد، وأشتم.

طفل لا تفارقني عيناه، أبحث عن تاريخه، عن شيء يسند تاريخه بعدي، أية خديعة أحوكها ضد عقلي، أخدر فيها وعيي، وأمحو بها كل قواي، أشيائي صارت مثلي، تائهة في تلف لم يترك سوى تماثيل كاذبة، أعرف جيّداً مدى عجزي عن خلقها، خوفي منها، حين تأخذ نفساً عميقاً يجعلها ضمن الناس، ضمن وجودي، داخل أنسجة الخارطة التي (أموت) فيها.

أكاد أزاوج بين الباطل والحقيقة، ما شأني بكل السؤالات المهملة دون جواب؟ حان لي أن أدرك وجه الأشياء وخلفياتها وأسرارها: فقد زالت عن جسدي أية قوة يمكنها دفعي إلى كشف عذابات الروح ولوعتها.

دمي يفسد شيئاً بعد شيء، عروقي انتفخت بالدمامل والذعر، ماذا يجدي أن أكون رائعاً على لسان الناس، بينما جسدي تنهشه الطعنات وتأكله الديدان؟

ماذا يجدي كل شيء، وأنا لا أريد شيئاً؟ أصرخ: أنا رجل فاسد العقل، وفاسد القلب، أعرف هذا جيداً (السيد ناهي لن يموت) وأنا ما عدت أريد سوى نفسي.

لكن فورة الروح تصعد نحو رأسي، كأنها تقول:

ـ مثلك من نريد ونحتاج، لماذا تعاند، وتكذب؟

تلك الفورات، تصعد، لكنها بيدي تخفت ثانية، فأنا أعرف «الإنسان» الذي أحمل اسمه، رأيته في السجون والغرف السرية، يتوجع من انشطاراته، يصرخ من تأريخه الذي لا يعرفه أحد، لن يفهمه أيما صديق من أصدقائه المتبطرين، الذين يناقشون ويشربون، ومثل سواهم يتبولون كل شيء مرة واحدة.

* * *

قال الأعمى كأنه يقرأ قرآناً:

ـ عافاك الله وأحسن مثواك، لا أدري ماذا تريد، لكني أحس أنك تمشي إلى الموت بسرعة هائلة، وما رأيت مثلك إنساناً يبحث عن هلاكه كما تفعل.

حدقت في المكان الذي تلتقي فيه حفرتا عينيه، بكيت عليه، ما دريت بأني أبكي نفسي، همست في أذنيه:

ـ هل تدري لماذا؟

ولما قال (لا) قلت له وأنا أبكي نفسي:

ـ لقد طالت بي الحياة وبات عيشها لا يساعد أمثالي على السعادة، هل تراك تفهم؟

وإذ قال (نعم)، عدت أهمس في أذنيه وأنا أبكي موتي:

ـ هل تشعر مع نفسك أني أكذب؟

مدّ يديه إلى خدي وقال:

ـ أنت لا تعرف الكذب.

قلت له وأنا أهجس حالة من السعادة لم أمرّ بها أبداً:

ـ عافاك الله أنت وأحسن مثواك، قد تكون آخر من يقولها، فأنا لا أعرف الكذب ولم أفعله، حياتي على خطورتها إنما تشبه الكذب، ومعجزتي أني عشتها، مت ورجعت عشرات المرات، ولست خائفاً من المرة التالية، فهي مهما تشابكت، تشبه عندي كل موت سابق، وها أنت معي شاهدي وصديقي، ربما ستجرب الموت مثلي، حسبك أن تضحك إذا ما متّ يوماً، حسبك أن تضحك إذا ما رجعت، ستفهم أنها لعبة ليس لها معنى، لكنها لعبة لا بد أن نلعبها.

«كل شيء تخدّر فيه، راح يمسح وجهي بأصابعه وهو يبكي بصمت، بعينين محفورتين وأنف متآكل وروح مرهقة مسّها الخوف».

* * *

خلفي، خلف ظهري، ما زال ناهي يخطب في أبناء محلته، يكذب...

خلفي أنا، لكن هيهات بعد الليلة أن أمدّ يدي أو بصري إلى شيء..

هيهات أن أقول شيئاً، لا أريد الرجوع لتلك الزواحف الغريبة، والفيل الذي ما فتىء يمدّ خرطومه إلى ثغوري وذاكرتي..

برئت نفسي من الوجوه التي أعرفها: أبناء محلتي، من أشياء السيد المختار، هواياته، والأعيبه، إن هو إلّا واحد مثل آخرين: بشر مثلنا..

لا شأن لي بشيء، لا أعرف أي شيء.

سلاماً للحرية، للنساء، والخمر.

للروح فقد هدأت.

* * *

هل تراها هدأت؟

بغداد